(٧٤)

"مسئولية الاختيار"

أصرت والدتها أن تخرج لمقابلة العريس الذى تقدم لخطبتها فى الموعد الذى حددته مع عائلته دون أن تأخذ رأيها، وكان عليها طاعة والدتها حتى تبدو بمظهر لائق أمام قريبتها التى توسطت فى هذه الخطبة المرجوة. وبالفعل خرجت إكرامًا لوالدتها التى اعتادت بين حينٍ وآخرأن تفرض عليها مقابلات كتلك تكون هى خلالها فى غاية السعادة لكثرة خطَّاب ابنتها أملاً منها فى رؤية وحيدتها وهى ترتدى ثوب الزفاف الذى كانت مستعدة أن تدفع فيه أى ثمن ليكون هو الأجمل بين كل فساتين الزفاف التى رأتها فى كل أفراح قريناتها.

وكشأن كل أم تسعد بأى رجلٍ مهذب يتقدم لخطبة ابنتها ويكون من أسرة ميسورة الحال وحاصل على شهادته من كلية من كليات المرحلة الأولى، كانت والدتها فى غاية السعادة لأن الرجل المناسب من وجهة نظرها قد دق الباب راجيًا موافقة ابنتها. وهذه الموافقة لم تكن باليسيرة على فتاة مثلها فى مقتبل العمر كان الجميع يتوقعون خطبتها مبكرًا، وكانت قريباتها وصديقاتها يعقدن المقارنات بين من تقدموا لخطبتهن وتمت موافقتهن عليهم بلا تردد، وبين كل من يتقدم لخطبتها هى ومع ذلك لا توافق على الارتباط بهم.

وفى ظل معاناة طويلة من اتهامها بجحود النعمة وعدم شكر الله عليها، وسجالات كثيرة مع والديها حول عاقبة رفضها لعرسان مثل هؤلاء يُعتبر كل

واحدٍ منهم فرصة قد لا تتكرر خاصة مع تقدم العمر بها، كانت هى غير مكترثة بما قد قيل لها، وما قد يقال عنها، لأنها لم تكن مثلهم تنظر للزواج على أنه فرصة يجب عليها أن تنتهزها قبل فوات الأوان، بل كانت تعى أن الحياة ذاتها هى فرصتها التى يجب ألا تفرط فيها، أما الزواج فكانت ترقب حدوثه مثلها مثل أية فتاة لا لتثبت فيه وجودها الحر خارج بيت والديها، أو لتنعم بسببه بالنعيم الذى كانت محرومة منه، أو لتشعر من خلاله بكامل أنوثتها كامرأة ثم بكمال نضوجها عندما تصبح أمًا، بل كان الزواج يعنى لها السكن الذى ستهدأ فيه نفسها ويستكين معه كل كيانها فى حماية رجلٍ بحق يتكاملان معًا دون أن ينتقص من قدرها .. يحتويها ولا يفرط فيها .. يحتضن طموحها ولا يخيب رجاءها .. يحترمها ولا يهينها .. يضيف وجوده فى حياتها إليها، ولا يكون عبئًا عليها .. رجلٌ يستوعب فكرها المتقد باحثًا معها عن إجابات موضوعية واعية لكثير من الأسئلة التى يطرحها بروحٍ متجددة وعقلٍ حر وقلب مستنير.

ومضت السنوات، وتحققت نبوءة من لاموا عليها رفضها لأكابر العرسان الذين تقدموا للزواج منها، وسخَر الجميع من إصرارها على حلمها الذى لم يتحقق، وظن القاصى والدانى أنها قد خسرت مستقبلها الأسرى بتمسكها بأملها الذى كانوا يرونه وهمًا، بينما ظلت هى غير نادمة على ما مضى، بل متفائلة بما سيأتى، وأنه يومًا ما حتى لو لم تتزوج بمن يغمر قلبها حبًا، ومن يملأ عينيها فخرًا، ومن يثرى عقلها فكرًا، ستظل قمة سعادتها فى أنها عاشت حياتها مثلما أرادت أن تحياها منتصرة على كل القيود الهادمة لمعنويات

البشر، والمحطمة لطموحهم، والمستعبدة لإرادتهم الحرة، والخانقة لأحلامهم الرشيدة.

وها هو سر سعادتها يكمن فى أنها تمكنت من أن تحيا حياتها هى، دون أن تكون نسخة مكررة من كل من حولها بلا تفكير أو حتى إعادة نظر، وأنها ناضلت بشجاعة من أجل حياة هى وحدها من تقرر كيف تحياها بسعادة متحملة ثمن كل نفس تتنفسه فيها بحرية مسئولة وعزيمة موصولة.